السيرة الذاتيّة الشعريّة

(مدخل نظري)

د.محمد الصادق الخازمي[1]

عرض:

يجتمع في هذا العنوان جنسان أدبيان قد يبدو للوهلة الأولى أنّهما مختلفان متباينان، لطبيعتهما الذاتية، وخصائص كلٍّ منهما التي ميّزته عن غيره، فمن خصائص الشعر التي تميّزه عن النثر عامّة أنّه يعتمد التركيز، والإيجاز، والتصوير، وتكثيف العبارات، والاكتفاء بالقليل المُغنِي عن الكثرة، ويراوغ؛ فيعبّر عن المعنى القريب بطريقة غير مباشرة، وعن البعيد بإيهام قُربِه، ويتعمّد مفاجأة المتلقّي، وأحيانا صدمته بما يقدر عليه من أدوات، وبما تتيحه اللغةُ له من كلمات وقدرات، فكيف لفنٍّ هذه طبيعتُه أن يلتقيَ والنثرَ الذي يخالفه في مجمل هذه الخصائص، بل كان فيها له ضدًّا ومباينا، وبضدّها تتميّز الأشياء؟

لكنّ المبدع لا تحدّه الحدود، ولا تقيّده هذه القيود، التي تبقى في إطار الوصف العام، والتقعيد الذي يَغلِب، ولكنّه لا يَطّرِد الدهرَ والفنَّ، فقد تتداخل الأجناسُ الأدبيّة إذا وُجِدَت ضرورةٌ لتداخلها، أو كان هذا التداخل يخدم النصّ، وأَفلَح المبدعُ في تطويع ذلك من غير أن نشعر بشذوذ، أو غرابة، أو استكراه، أو تناقض في إطار الفن الواحد، ولهذا فإن هناك من الشعراء من استطاع أن يطوّع السردَ بأنواعه في شعره، فأحيانا يتخلّل القصيدةَ حوار، أو قصة، أو حكاية، أو ما شابه... وعلّة ذلك أنّ النفس تَستَروِح سماعَ الأخبار وتُشَدّ إلى القَصَص بالطبيعة، ويتعمّد الشاعر أن يثير المتلقّي بأيّ وسيلة يستطيعها، ولذلك فهو لا يتردد حين يلوح له في نصِّه مجالٌ لتوظيف ما يشاء من الأجناس الأدبية التي طبيعتها

[1]– أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية بكلية التربية بجنزور

تختلف عن الشعر إذا كان ذلك التوظيف يحقّق له غاية فنيّة تخدم النص، وتزخرف رسالته الفنية التي يُجهد نفسه وفنَّه في محاولة إيصالها للمتلقي.

والشعرُ بعدُ لا ينفصل عن الواقع، فهو بيانُ حال الحياة، بما فيها، وبما ينبغي أن تكون عليه أيضا، متبرّمًا ناقمًا في كثيرٍ من الأحيان، ناقدًا حينًا، معجبًا متيّمًا في أخرى... وهكذا، ولهذا كان الشعرُ موضوعًا للحياة، استشهد به رواةُ الأخبار والسيرِ قديمًا، حتى إنّ الحكاية أو الرواية تزداد قوّةُ إثباتِها، ويطمئن المؤرّخُ إلى صحّتِها إذا أثبتها الشعرُ، أو روى بعضَ أحداثِها، أو أُنشِد فيها بعضُ القول من أطراف مختلفة، ومع أنّ هذه الأشعار قد يشوبها الرّيبُ والتشكيك في بعضها كما في تلك الأشعار التي رواها ابن إسحاق في السيرة، فإنّ الأشعار في العصور الأخرى التالية للعصر الجاهلي قد أصبحت أوثقَ، وأشدّ بيانًا وتأريخًا من التاريخ النثري نفسِه، فقصيدة أبي تمّام في (فتح عمّورية):

السيفُ أصدقُ إنباءً مـــــن الكُتُــبِ في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ
بيضُ الصحائف لاسودُ الصحائفِ في مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشـــــكّ والرِّيَبِ
والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً... بين الخميسيْنِ لا في السبعةِ الشُّهُبِ

خلّدت هذا الفتح على غيره من الفتوح والحروب التي قد تكون أكثر أهمّية، وفي الوقتِ نفسِه أثبتت واقعة المنجّمين الذين تطيّروا من الحرب في ذلك الوقت، فالشعر في هذه الواقعة أصبح السند التاريخيّ للواقعة، وزاد الاطمئنان إلى صحّتِها.

ولا يقتصر الأمرُ على التاريخ وحده، فعلومٌ أخرى جعلت الشعر موضوعًا تستخرج منه مادّةً دسمة في بحوثها العلميّة، ومن ذلك علم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة...

وإذا كان الشعرُ قد وُظِّف للحياة: تاريخًا، ولغة، وعلومًا أخرى متّصِلة، فمن باب أولَى أن نجد في هذا الشعر نَفَسًا من أنفاس الشاعر، تتحدث عنه وعن حياتِه،

وتجربتِه، فحياة الشاعر خاصة، أو أي مميّزٍ في الحياة عامة مطلبٌ للباحثين والدارسين، فهو يمثِّل القدوة، وسيرتُه مادّة مفيدة للاقتداء والعبرة، ولهذا يطلب الناسُ أن يقرؤوا سِيَر العظماء والقادة والمبدعين "فإنّ كل سيرة إنما هي تجربة ذاتيّة للفرد تتطلّبُ أن يكون بطلُها شخصًا ذا تميُّزٍ واضح في ناحية من النواحي، ...وهذا الشرط أساسي في السيرة الذاتيّة بخاصة"[1]

ولهذا يرى بعضُ النقّاد أنّ الشعر هو الوثيقة الأكثر صحّة للتعبير عن الشاعر، ودارسته دراسةً وافية، وقد اتخذ العقّادُ هذا المسلكَ منهجا في دراسته عن (ابن الرومي) فجعل عنوان كتابه: (ابن الرومي حياته من شعره)[2]، واعترض د.إحسان عباس على هذا العنوان، إذ يرى "أن الاعتماد على الشعر فحسب للترجمة لشاعر مسألةٌ لا يمكن تحقيقُها، لأن الشعر لا يصوِّر إلا حالة وجدانية أو شبيهة بها، ولهذا أخطأ العقّاد في عنوان كتابه عن ابن الروميّ، والخطأ في العنوان لا في الكتاب"[3]، ويلاحظ على هذا الاعتراض أنّ فيه رجوعًا عن الانتقاد الموضوعي الذي ساقه في بداية كلامه، وهو (كون الشعر لا يصوِّر إلا حالة وجدانية أو شبيهة بها) وقصره في النهاية على العنوان دون مضمون الكتاب، وأظنّ أنّ الاعتراض الذي ساقه د.إحسان عبّاس قد يصلح مجملا لكنّه لا يصلح تفصيلا، فلكل حالةٍ حكمُها، ولكل شاعرٍ سيرتُه التي قد تتّضح في شعره ويمكن تتبعُها ودراستُها لأنه يميل لأن يعطينا براحا وتفسيرا في شعره لكثير من شؤونه، وأحيانا يستعصي الأمرُ؛ فتكون شخصية الشاعر في شعره مباينِةً تماما لشخصيّته

1- فن السيرة، د.إحسان عباس ،دار الثقافة ، ط2 ص96، بيروت،1956م
2- ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2013م
3-فن السيرة:80-81

في الواقع، أو كما رواها الرواة والمؤرّخون، فأشعار أبي العتاهية في الزهد تدلّ على اطِّراح للمُتَع، ورغبةٍ عن الدينار والدرهم، وحياته في الواقع بخلاف ذلك[1].

ولذلك يبقى النصّ الأدبيُّ وحده هو الحجة الفاصلة التي تؤيّد أحقيّة الشعر بأن يكون وثيقة ترجمة لحياة الشاعر أو لا!

والأصل الذي ينطلق منه النقّاد هو أن الشعر تجربة وشعور ووجدان، لكنّ الحجر عليه باعتبار هذه السمة وحسب أمرٌ مغالىً فيه، فللشعر أدواتُه، والشاعر خالِقٌ لأحلامه، وندر أن تفلت نفسُه من أن تظهر في ثنايا شعره، وتبين عن حقيقة ذاته، مهما حاول أن يتلفّع بلباسٍ غير لباسه الحقيقي، وفي نظري فإن التحليل المعمّق للشعر قد يعطي صورة حقيقيّة عن الشاعر أكثر مما يرويه المؤرّخون والمفسّرون، لأن الحياة في جميعها لقطات أو محطّات، وقد تكون في السيرة التاريخية منعطفاتٌ غامضة، وأحوال غير مفهومة، وحدَه الشعرُ قد يكشفُها، ويعطيها بُعدَها الحقيقيّ، فالأفعال المادية المحسوسة، لا تفسِّر كلَّ الحياة، والناقد ليس مؤرخًا موضوعيًّا بل هو يحبّ –أحيانا– أن يتجاوز الحياة التي فرضها الواقعُ وحتَّمتها الظروف إلى الحياة المتخيّلة أو المثالية كما يراها الشاعر، ولا تظنّنّ أنّ هذا ليس بهامٍّ، فالخيال جزءٌ من الحياة الحاضرة التي لم يتحقّق فيها، وهو عنصر هام من الخلْقِ الأدبي المميّز، ولهذا فإنّ السيرة الذاتيّة الشعريّة تبقى موضوعا ذا حضورٍ خاص في بعض النصوص عند شعراء بعينهم، " والسيرة الأدبيّة موجودة

1– انظر تفاصيل ذلك في أخباره المسهبة في الأغاني، وقد روى فيها أبو الفرج أخبارًا كثيرة عن بخله الشديد، وشكّك في حقيقة تديّنه، ورماه بعضُ معاصريه بالزندقة، واختلال العقيدة، ينظر: الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه أ. سمير جابر، ج4، ص 19 وما بعدها، دار الكتب العلمية– بيروت، ط2، 1992م

في كل جنسٍ أدبيّ، ومن الصعب الفصل بينها وبين أيّ جنس، فالمبتكر يستذكر أشياء من ذاكرته"[1]

والحديث عن النفس ليس ترفًا أو أنانيّة من الشاعر، كما قد يتخيّل متخيّلٌ، ولكنّه حاجة ذاتيّة ملحّة نابعةٌ من تفكيرٍ عميق، واتّحادٍ بين الذات والفن، فيحتاج الشاعر لنقل تجربته للآخرين، إذ يرى في ذلك فائدة تخدم رسالته من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يزيح عن كاهله همًّا وقلقًا يجد متنفّسَه في إخراجه في صورة أدبية بديعة، و قد لاحظ بعضُ النقاد أنّ:

"الغاية الأولى التي تحقّقها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كلُّ عملٍ فنيٍّ صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي متنفّسٌ طلْقٌ للعنان... توضِّح موقف الفرد من المجتمع، كما تمنحه فرصة لإبراز مقدرته الفنيّة القصصية إلى حدٍّ كبير، وتريحه نفسيًّا لأنها تستند إلى الاعتراف"[2].

الحديث عن النفس حاجةٌ شخصيّة ذاتيّة للمبدع، لأن ذاتَه هي المنطلق في فنّه، والشاعر المُجيد المبدع، ليس ذلك الذي يكرّسُ نصوصَه للحديث في الأمور العامة، ويبدي رأيَه عن وجهات نظر مؤيّدةٍ لهذا الفريق، أو معارِضةٍ لذاك، أو يجعل شعره مجالا لشرح الأفكار العامة أو النظريات أو المواقف، الشاعر هو من يفلح في أن يكون له موقف فنيّ في أدبه من الحياة، وينجح في تقديم إضافةٍ للمتلقّي وللحياة أيضا، وليس بالضرورة أن يكون ذلك بالحديث عن الأمور العامة أو تجميع الحكمة، وضرب الأمثال، فإن هذه الأمور تسقط قدر الحكم والأمثال،

1- فن السيرة الذاتية في الشعر العربي، د.عبد المجيد البغدادي، ص193، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، العدد 23، باكستان ، 2016م

2- فن السيرة:99-100

وتضرّ بمستوى الشعر نفسه، كما قرّر ذلك الجاحظ في حديثه عن شعر صالح بن عبد القدوس، وسابق البربري:

"لو أنّ شعر صالح بن عبد القدوس، وسابق البربري كان مفرّقًا في أشعار كثيرة، لصارت تلك الأشعارُ أرفعَ مِمَّا هي عليه بطبقات، ولصار شعرُهما نوادر سائرةً في الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلّها أمثالا لم تسرِ، ولم تجرِ مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامعُ من شيء إلى شيء، لم يكن لذلك عنده موقع"[1].

هناك – ولاشكّ– توازن بين الذات الشاعرة التي يعبّر عنها المبدع، وبين قضايا عصره، قد تكون النفسُ هي المنطلق الذي يجسّد رؤيا الشاعر، ونظرتَه للحياة، ودعوته التي ينافح عنها، والتي لا مجال لإنكارها، " فلكلِّ عملٍ أدبيٍّ دعوةٌ، وإدراكٌ خاصٌّ للحياة، واتخاذ موقفٍ حيالها، فلا سبيلَ إلى أن تختفي شخصيّةُ الكاتبِ وتُمحى معالمُ ذاتِه في خلقِه الأدبي، فهو خابِئٌ وراءَ عمله الموضوعي، ولا ينبغي – بحالٍ– أن يقفَ فيه موقِفَ المستهتِرِ أو المغترِبِ عن عصرِه ومجتمعِه، ولكلِّ كاتبٍ في ذلك موقفُه الخاص"[2] .

الترجمة الذاتية:

الترجمة الذاتية تعني أن يجعل الأديبُ نفسَه موضوعًا رئيسًا لأدبه، وأن يتحدث بإسهابٍ أو إيجاز عن تاريخ حياته، وعن تفاصيلَ مهمّةٍ فيها قد تكون أثّرت بشكل من الأشكال في تكوينه، عن تأثّره بمن حولَه، وعمَّن ساهم في تكوينِه، وصقلِ تجربته الفنيّة، ومَن أحبّهم، ومَن خذلوه، وعن خلاصة عُمُرِه وتاريخِه، وهو عندما يروي ذلك يرى – في الغالبِ– أنّها حياةٌ تستحقّ النقل، وأحيانا يكتب هذه السيرة

---

1 –البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ (ت 255 هـ)، ت: عبد السلام هارون، الناشر دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ)، 1: 179 .

2– قضايا معاصرة في الأدب والنقد،د.محمد غنيمي هلال، ص64، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة

بدافع الوفاء لمن أحبّهم، أو بدافع سداد دينِ خيرٍ أو شرّ لمن داينه بأيٍّ منهما، وأحيانا تكون السيرة الذاتية حديثًا عذبا صافيا، وأحيانا تكون حديثًا مجرّعًا بالمرارة، مشحونًا بالألم والخيبة والخسران، وأحيانا يكون المتلقّي في صلب اهتمام الكاتب، وأحيانا لا يعبأ به أبدًا فهو يكتب للتاريخ، وليزيح عن نفسه همّ الألم، وبؤس الكتمان.

السيرة الذاتية ملخص الحياة، كما يراها الكاتِبُ وكما عايشها، وليس بالضرورة كما حدثت فعلا في الواقع، فإنّ "الصدق الخالص أمرٌ يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدقٌ نسبيٌّ، مهما يخلص صاحبُها في نقلها على حالِها"[1]

وسببُ ذلك أن الأديب يروي الأحداث من وجهة نظره هو، وقد تكون وجهةُ نظره عن ذلك الحدث واقعةً تحت تأثير المصلحة، أو غياب الأفق، أو غياب وجهة نظر الآخر الذي له الجانب الثاني من القصة، ولذلك فالأديب في السيرة الذاتيّة ليس مؤرّخًا، يُؤاخَذُ بما يؤاخَذُ به المؤرّخون من التتبُّعِ والتّقصّي، بل هو طرفٌ يروي نصفَ الحكاية، ويحكي جزءًا من القصّة، ولمن جاء مِن بعده أن يأخذ أطرافَ الأحاديث كلَّها، ويرتّبها ترتيب المؤرخ أو الناقد إن شاء التقصّي، لكن ما يهم النقد هنا هو أنّ الحكاية عن النفس، والحديث عن الذات، موضوعٌ يأخذ بالشعر نحو طرقٍ متعددة المسالك: طريق الشعر الذي يعتمد التكثيف والإيجاز، وطريق السارِد القاص الذي يجيد التقاط الحكاية، وربط أطرافها وأحداثها وتمثيل شخوصها، وطريق المؤرخ الذي له نظرة عامة للأحداث والواقع فيسجلّ ما حصل مع التعليق والترتيب والسياق الذي يمثِّل وجهة نظره، سواء أكانت موضوعيّة إن

1- فن السيرة: 113

أفلح في ذلك، أو منحازة إلى موقفٍ أو فكرٍ أو فريقٍ من الأفرقاء، فالسيرة الذاتية – إذن– هي " حياةُ إنسانٍ كما يراها..."[1]

و لا يُنقِصُ كون السيرة الذاتية تعبيرا عن الحياة كما يراها المبدع من قيمتها التاريخية أو الفنّية، لأن وجهة نظرِ الأديب معتبَرة، ولها فضل سابقيّة على غيرِها، فالفنانُ له إحساسٌ مختلِفٌ عن الأحداث، وله ذائقةٌ مميّزة تضفي عليها الوهج تارةً، أو تطفئ البريقَ الكاذبَ لها تارةً أخرى، ثم هي من حيث التاريخ مصدرٌ أصيلٌ، وشهادة مكتوبة ممهورةٌ بتوقيع صاحبها، فهي أَوْجَهُ من شهادة الآخرين على المبدع، : "فالترجمة الذاتية أوثق صلةً بالإنسان من السيرة الغيريّة، فإنّ هذه [الأخيرة]تعتمد على النقد الموضوعي، وعلى الوثائق والمدوّنات...في حين أنّ السيرة الذاتيّة تُقاسُ قيمتُها الأدبيّة بما فيها من الذاتيّة، أو النقل المباشِر من الذات، باعتمادها على التذكّر القويّ للأفكار، والمواقف المؤثِّرة، ولِنُقَط التحوّل الواضحة..."[2]

وفي أحيان كثيرة لا تجزئ معرفة الخبر مجردا عن معرفة الموقف منه، فالقارئ يحتاج بعد أن يسمع الواقعة– في بعض الأحيان– أن يعلم ماذا تعني؟ وهل هذا الموقف من ذلك الشخص صوابٌ أم خطأ؟ وما تأثير ذلك؟ ولماذا حدث هذا؟

كل هذه الأسئلة لا يغني في الإجابة عنها أن تقرأ الخبر مجرّدًا بموضوعية المصوِّر الفوتوغرافي، بل أنت بحاجة إلى روح الإنسان، وإلى عقل مستنير يقدّم تفسيره ورؤيته للأحداث، وفي أحيانٍ كثيرة يقوم المؤرِّخون بهذه الأدوار، ويحاولون هم –وأحيانا الفلاسفة وعلماء السياسة وغيرهم– تفسير التاريخ بتأويلات كثيرة،

1– أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، ص 27، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر 1992م

2– الترجمة الذاتية، يحيى إبراهيم عبد الدائم، ص26، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1975م

لكن قراءة المبدع الشاعر، وكاتب السيرة لها أيضًا أهميّتُها الخاصة في تقديم أفكار قد تكون مفيدة لكل أولئك المفسِّرين.

بين الترجمة والسيرة:

يبدو الفارقُ بين هذين المصطلحين متعلّقًا بالطول والقصر من حيث المبدأ، فالترجمة تعني السيرة الموجزة المختصرة، بينما السيرة تعني السيرة المطّولة، وقد ذهب د.يحيى عبد الدائم إلى أنّ هذا جرى كالاصطلاح المقرّر" فكلمة الترجمة يجري الاصطلاح على استعمالها لتدلّ على (تاريخ الحياة الموجز للفرد) وكلمة سيرة يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة"[1]

ولكن الترجمة الذاتية الأدبية لا تُقاس بالطول أو بالقصر، بل بما تقدّمُه من رؤية ومن معلومات هامة عن الإنسان وحياته الفكرية والذاتية، وقد "ذهب (أنا روبسون) و(إرنست ستيورات بيتس) كلاهما إلى أنّ الترجمة الذاتية مصدرٌ للمعلومات عن نفسيّة الإنسان، في حين أنّ نقّادًا آخرين من مثل (دون) و(ريكلسون) و(استاوفر) ذهبوا في دراساتهم النقدية للسير الإنجليزية إلى أنّ الترجمة الذاتية تقدِّم حقائق هامة عن حياة الإنسان"[2]

وتلخيص النقل السابق هو جدل عمّا تُقدِّمُه الترجمة الذاتية عن نفسيّة الإنسان أو عن حياة الإنسان، وفي الواقع فإن الترجمة الذاتية تصلح في كثير من الأحيان أن تقدِّم الشيئين معًا، بحسب ما يَعِنّ للكاتب، وبحسب ما يمضي به نصُّه، فالمضمونُ يحكم النصَّ، وقد يكون العكس صحيحا أيضا فيساهم المضمونُ في بناء النصّ وتكوين هيكله الذي يناسبُه، لأن رسالة الكاتب ليست عبثيّة، ولا تقدم تاريخًا ساذجًا خاليًا من الإرادة التأثيريّة الطبعيّة لأيّ نصٍّ أدبيٍّ، وأحيانا تتصرف بالمبدعين الإرادات، وتختلف لديهم المنطلقات بحسب كلِّ مبدع، أو بحسب كل

1- الترجمة الذاتية:31

2- المصدر السابق:9

نصّ، أو في النصّ الواحد إذا أراد المبدع تنويع رسالتِه وتضمينها قدرًا أكبر من التأثير، وضمنها أغراضًا يحتملها النص، ويوافق عليها السياق، ويحكم نسج ذلك كله مهارة أديب قادر متمكن له دربة في فنه، وقدرة على الصياغة وإحكام البناء.

وإذا كانت هذه هي الترجمة الذاتية عند المبدعين، رسالة خالدة ذات تأثير، ولها هدف إبداعي، وليست نقلا للواقع وحسب فإنّ "الترجمة الذاتية ليست هي التي يكتبها صاحبها على شكل مذكرات يُعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخيّة أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتي، وليست هي التي تُكتَب على صورة يوميّات... وليست المكتوبة على شكل اعترافات... الترجمة الذاتيّة هي شيءٌ آخر يختلف عن الصور التي سلفت الإشارة إليها... فالترجمة الذاتية لها بناءٌ مرسوم واضح، يستطيع كاتبُها من خلاله أن يرتّب الأحداث والمواقف والشخصيّات التي مرّتْ به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أنْ يُنحّيَ جانبًا كبيرًا من التفصيلات والدقائق التي استعادتها ذاكرته"[1]

قيمة الترجمة الذاتية النقديّة في قدرتها على الإحاطة بالأفكار، وفي القدرة المميّزة على البناء والسرد، وإحكام الربط، وتوظيف الأحداث بما يخدم الفن، والشعر خاصة في هذا المقام، وهذا محور اهتمام النقد الأدبي بل الأدب نفسه أيضا "فهدف علم الأدب ليس دراسة الأدب، بل دراسة أدبيّةِ الأدب التي تمثِّل جوهر الحقيقة الكامنة في الشكل، والتي يحوِّلها المؤلف بالصياغة الخاصة إلى تجربة قابلة للتفاعل والمشاركة القائمة على الجدل بين المتلقّي والعمل"[2].

وهذا معيار مهم لا ينبغي أن يغفله الدارسون، فالترجمة الذاتية في سياقها الأدبي الشعري غير الترجمة الذاتية في السياق العام الذي يصلح أن يكتب فيه كل مشارك في أي علم من العلوم، فللأدب قيمته، وللنصوص الأدبية خصائص مميّزة

1- الترجمة الذاتية: 4

2- تحليل الخطاب الأدبي، إبراهيم صحراوي، ص15، دار الآفاق ، الجزائر، 1999م

لكل جنسٍ من أجناسه، و المزج بين فن الترجمة الأدبية وفن الشعر يحتاج مهارة خاصة من الأديب، وقدرة على تطويع كليهما لفنه، وتمكنا تامًّا من الإجادة في كليهما، فقد ينجح الأديب في أن يكون كاتب سيرةٍ معتبر مقدّر، ولكنه لا ينجح في أن يقدّم هذه الترجمة في صورة قصيدة شعريّة مكتملة الأركان مترابطة الأبيات، ثم يكون لهذه الأحداث التي يقدمها الشاعر مكانة غير نافرة في النص وتؤدي خدمة إبداعية فيه، "فالترجمة الذاتية الفنيّة: هي التي يصوغها صاحبُها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح... وفي أسلوب أدبيٍّ قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيًا كاملا عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز حافلٍ بالتجارب والخبرات"[1] .

وليس مطلوبا من المبدع أثناء حديثه عن سيرته أن يسرد كل شيء أو أن يتحدث عن كل التفاصيل المهمة وغير المهمة، عليه أن يختار، (فالفنّ اختيار) وفي السيرة الذاتية يقاس الاختيار بمدى احتوائه على الأهم والأصلح ولا ينبغي أن يكون اختيارًا له هدف (تجميليٌّ) يتغنى فيه بمدح ذاته، فيذكر النجاح ولا يذكر الإخفاق، أو يكون الحديث فيه عن النفس مغرقا بجعل نفسِه منقذ الكون والصالح الوحيد في المجتمع، فالمبدع إنسان وعليه أن لا يتخلّى عن إنسانيّته، وأن يحترم ذكاء المبدع، وقد يكون المترجم لذاته بلغ حدًّا من المعارة الفنيّة بحيث يجعل المتلقّي يتعاطف معه حتى في إخفاقاته وسلبياته.

ونخلص ممّا سبق إلى أن استخدام أيٍّ من المصطلحين(الترجمة أو السيرة) في سياق الشعر سيكون مقبولا ، لأن للشعر أسلوبه الخاص، وطريقة بنائه التي تحجزه عن بقية الأجناس الأدبية، فسواء طالت القصيدة أم قصرت فإن شرط الشعرية لازمٌ لها، ولا غنى عنه بحال، ولهذا فالترجمة الموجزة أو السيرة الطويلة إذا ارتبطتا بالشعر سيُحكمانِ بأصوله الفنية، ومن حيث الفن والأدب فإن استخدام

1- المصدر السابق :10

أيٍّ من المصطلحين لن يضير لأننا في إطار الشعر مشغولون بالشعرية قبل انشغالنا بالتصنيف النثري التقليدي الذي وُضِع في السياق التاريخي، وليس في السياق الشعري.

بين السيرة الذاتية والتاريخ:

السيرة الذاتية تصلح لأن تكون وثيقة للتأريخ، هذا صحيح، ولكن هذا التقرير يحتاج إلى تأنٍ وتريث في التعامل معه، فالأديب يكتب بروحٍ أخرى ويقع تحت ضغط حياته، وقلق نفسِه الشاعرة الطامحة الجامحة أو المرهفة الرقيقة، فرؤيته رؤية شاعر ، لا تُطّرح لكن ينبغي أن تدرس من هذا المنظور، ولهذا فالسيرة الذاتية تليق بتفسير التاريخ أكثر من صلاحيّتها لتدوينه، للسبب الآنف الذكر.

والحاجة لتفسير التاريخ، أو تكوين وجهات نظرٍ عن بعض شخصياته، أو الحكم على بعض الأحداث التي تقع هنا أو هناك قضية جدلية خلافية، ربما تكون أهم من الواقعة التاريخيّة نفسِها، بل قد تفسِّر أهواء المؤرِّخين أو تزوير التاريخ أو التلاعب به، وهذا الرأي هو خلافُ ما ذهب إليه د.إحسان عباس من أنّ السيرة الذاتية إذا "كانت تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلّة، فإنّ صلتها بالتاريخ تكون واهيةً ضعيفة"[1].

الشاعر ليس مؤرّخًا، وتقويم العمل الشعريّ على أساس الإجادة التاريخية فيه تجنٍّ على الأديب، لكن الفرد هو أساس كل حدث، وهو يوظّف التاريخ، ويفيد من التاريخ في بناء نصّه، فالحديث عن الذات هو تعبير عن الحياة الصغرى، لكن في السيرة الذاتية ترتبط هذه الحياةُ الصغرى بما حولها مما هو موجود في العالم، فتكون الأحداث واقعةً في صلب المضمون، وليس من المهم أن تكون تلك

1- فن السيرة:11

الأحداث دقيقةً جدا، فتدقيقها تاريخيا صنعة المؤرخ أو الناقد إذا شاء أن يضبط التاريخَ لغرضٍ يخدم قراءة النص، لكن من المهم أن نعرف شيئين:

- موقف الشاعر من الأحداث، ومن الشخوص
- توظيف الشاعر للأحداث في البناء الفني لعمله الإبداعي

والأول يتعلّق بتفسير الأحداث، أو بالحدث الذي يرويه الأديب مجرّدًا عن الواقع، لأن الصدق الفني هو المطلوب إجمالا في القصيدة وليس الصدق الواقعي، صحيح أن السيرة الذاتية ذات قيمة خاصة وأن نقل الواقع كما هو بدون تمويهٍ أو تزييف هو الخلاصة التي يفيدها القارئ، لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أنّ "الإنسان هو ضحية الذاكرة والزمان اللذين يفرضان عليه ضروبًا من الخداع والتضليل والخذلان، وليس في وسعه أن يصبح بمنجاة منها، ويذعن في النهاية لألوان كثيرة من الإيحاءات والافتراضات المستقرّة في اللاشعور، ومن ثَمّ فإنّ الإنسان في العصر الحديث ربما يعبّر في فنّه وأدبه عن عكس ما يفكّر فيه، وما يشعر به فيطمس بذلك معالم الحقيقة من نفسه"[1].

وهذا يضيف أعباء على المؤرخ، لكنّ الناقد يصل قراءتَه بما حملتْه النصوص، ويسبح في عالم الأفكار مهما كانت مخالفةً للواقع، لكنّه لا يهمل هذه المخالفات أو هذا التناقض بين الحقيقة التاريخية وما يقدمه النص من حقائق مخالفة لها، لا يتنكّر الناقد لكل ذلك إذا تمكّن من رصده وإدراكه، لكنها تبقى في النهاية حقائق خارج النص، وفرضها على النص قد يضعف قيمته الفنيّة، فلو قرأت لأبي العتاهية مثلا:

قطّعتُ منكِ حبائل الآمـــــال ... وحططتُ عن ظهر المطيّ رحالي
ويئستُ أن أبقى لشيءٍ نلتُ ممّا... فيـك يا دنـيا وأن يبقـــــــى لي

1- الترجمة الذاتية:7

فوجدتُ برد اليأسِ بين جوانحي...وأرحتُ من حِلّي ومن ترحالي[1]

فإذا قرأت ثناء القدامى على النصّ تجدهم يجعلونه من أجمل ما قيل في الزهد، وإن قرأت سيرة الشاعر عند أبي الفرج تعلم أنه كان بخيلا شديد البخل، وأنّ تديُّنه كان محلّ شك، فإن أنت أسقطتَ الحقيقة التاريخية على النص ذهبت بجماله، وجعلت مضمونه منافقا متكلّفًا سمجًا، وإن اعتمدت النصّ وحده تضاءلت قيمةُ التاريخ في التأثير أمام روعة التصوير وحسن السّوْق للمعنى الذي أجهد العتاهيُّ نفسَه فيه، فالحقيقة التاريخية قد تجني على النص إذا تحاكمنا إليها بالمطلق، وذلك لا يعني إهمالها أو رفضها، ولكن استخدامها في تحليل النص وفهمه مشروط بأن لا تؤدي بالناقد إلى الاعتماد عليها وحدها إلى الدرجة التي يصابُ فيها المضمون بالتشكيك والتقليل من أهميته لا بسبب ضعفه أو قصور الشاعر في التعبير عنه، ولكن بسبب حقائق خارج النص يتم فرضها عليه قسرا.

الصياغة الفنية:

وينتهي هذا المدخل النظري إلى الحديث عن الصياغة الفنية التي ينبغي أن يصوغها الشاعر في نصّه، فميزة السيرة الذاتية أنها تقدم للشاعر موضوعا، وشخصيات، وأحداثًا موجودة مسبقا، وليس مضطرا لخلقها، أو التفكير العميق في رسم خط سير لحياتها، هي موجودة فعلا في الواقع، " فالسيرة فنٌّ لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنّما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمدّ من الخيال، بل هي أدب تفسيري، وهذا النوعُ من الأدب كالأدب الذي يُخلق خلقا، من حيث أن صاحبَه معنيٌّ بغاية محدودة تهديه في اختياره، وترتيبه للحقائق"[2]

1- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للنشر، 1986، ص125

2- فن السيرة:84

وهذا يعني أن وجود الشخصيات و الأحداث في الحياة لا يكفي لخلق العمل الفني، بل إنّ الشاعر يتدخل فيها للترتيب والتنسيق والرسم، ويقدم رؤيته لترتيب الأحداث، بل إنّ الترتيب نفسه بناء مستقل يحمل خصائص متعددةً للفن؛ "فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله... ومن ثمّ فهو أقرب إلى المعماري بناءً، وهو كالمؤرخ في قوة النقد، وكالعالم في القدرة على التصنيف"[1]

وقد يفرد الشاعر قصيدة بذاتها للحديث عن سيرته الذاتية، ويتحدث فيها عن التاريخ والمجتمع، وأقرب مثال لهذا قصيدة د.عبد المولى البغدادي (من وحي الثمانين)، وهي قصيدة فريدة في ذاتها، وتحمل خصائص السيرة الذاتية الكاملة ولعلي أفرد لها دراسة مستقلة إن شاء الله.

وفي أحيان أخرى كثيرة يبث الشاعر صورًا متفرقة من حياته في ثنايا أعماله الأدبية تعبر عنه، وعن خصائصه، وقد تأتي هذه الأبيات عفوًا وطبيعة، لكنها تتحدث عن واقع، وتنم عن سمات شخصية، وحياة خاصة، ولنقرأ هذا النص لطرفة بن العبد:

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذّتي ... وبيعي وإنفاقي طريفـــي ومَتلدي
إلى أن تحـامتْني العشـيرةُ كلُّها ... وأُفْـرِدْتُ إفـرادَ البعــيرِ المُعَـبَّدِ[2]

يقدم طرفة في هذين البيتين نفسَه كما هو، من غير أن يكلف نفسه رسم صورة أخرى نمطية عن الفارس المهاب البطل الكريم الحليم الذي اعتادته الذاكرة العربية، وتألفه روح الصحراء، إنه فتى عربيد يشرب الخمر حتى تجنّبته العشيرةُ كلّها، وبقي وحده مطَّرَحًا كما يُطّرح البعير الأجرب الذي يخشى الجميع العدوى منه

1- المصدر السابق 88

2- ديوان طرفة بن العبد، شرحه مهدي محمد ناصر الدين، ص25، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3،2002م

والمرض، لكن السؤال لماذا يقدّم طرفةُ نفسَه بهذه الصورة، صورةِ الفتى المدمن الخمرَ، المسرفَ المتلفَ للأموال؟

لقد وظّف طرفة هذه الصورة لتقديم فكرته الإنسانيّة التالية:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضُر الوغى ... وأنْ أشهدَ اللذّاتِ هل أنت مُخلِدي؟

فإنْ كنتَ لا تسطيعُ دفعَ منيّتي ... فدَعْـني أُبـادِرْها بمـا ملـكتْ يـدي[1]

هي رسالته الخاصة عن الموت، والتي حاول تأكيدها بكل وسيلة ليثبت لهذا الظالم الذي اعتسف حق أمِّهِ أنّه لا خلود له، وأن الموتَ من ورائه، ولهذا يحاجج خصمه، ويقدم حواره إلى ابن عمّه اللائم له:

فمالي أراني وابنَ عمّي مالكًا ... متى أدْنُ منـه ينْأَ عـنّي ويبـعُـدِ

يلومُ وما أدري علامَ يلومُني ... كما لامني في الحيّ قُرْطُ بنُ معبَدِ

و أيْأَسني من كلِّ خيرٍ طلبتُه ... كأنّـا وضـعـناه إلى رأس ملـحَدِ

على غيرذنبٍ قلتُه غير أنّني... نشدتُ فلم أغـفلْ حمـولةَ معبَدِ[2]

يقدم طرفة –وقد قصد أن يختار هذا الحوار من الواقع– رؤيته للحياة، مضمِّنًا هذه الرؤية خيبة أمله من الواقع المرير الذي يعانيه، فهو يعيش بين قومٍ يريدون فرض نمطَ حياةٍ معيّنٍ عليه، ويأبى هو إلا أن يحتفظ بطريقته الخاصة في الحياة، قدّمت الأبيات الآنفة صورة منها للعبث والمجون واللهو، وهذه الأبيات تقدم الصورة الأخرى:

وقرّبْتُ بالقُربى، وجـدِّك إنّنـي ... مـتى يـكُ أمـرٌ للنـكيـثة[3] أشـهدِ

وإنْ أُدْعَ للجُلّى[4] أكنْ من حُماتِها...وإنْ يأتِـك الأعـداءُ بالجَهدِ أجـهدِ

1- ديوانه:25

2- ديوانه:26

3- النكيثة: الأمر العظيم

4- الجلّى: المصيبة

وإنْ يقذفوا بالقَذْعِ عِرْضك أسقِهم...بكأسِ حياضِ الموتِ قبل التهدُّدِ[1]

سيرة طرفة في هذه الأبيات غريبة بعض الشيء لكنها تحمل خصائص الفتى العربي بكل ما فيها في صدق وأمانة، ويقدم تلك الحياة في صورة موازنة بين حاليه، نعم هو معربد، لكنه حافظٌ لحقِّ القُربى القريبة، لا يخذل قومه إن حلّت بهم مصيبة، ويشهد الأحداث العظام، ويدافع عن الأقربين، ويسقي شاتم ابن عمه (الذي يلومه، ويسخر منه) الموت الزؤام قبل أن يهدده، ذلك أن الحميّة ثارت في رأسه، والقيم العربية الأصيلة تجري في عروقه، فلم يظلمه قومُه؟!

لقد وظّف طرفة الأحداث، ورسم لنا من حديث شخوصه صورة بديعة، تستطيع أن تأخذ منها التأريخ إنْ شئت، والعبرةَ إن شئت، فهي إذن قصّة بطلٍ ذي خصائص متناقضة، ليس بالصورة النمطية المعروفة للبطل، أعني الشاب النبيل الفارس ذا الخلق الرفيع، لكنها شخصية من الواقع فيها التهوّر والإسراف والإدمان، وفيها الحميّة والشجاعة والنجدة والكرم، لكنه يعاني من اضطهاد المجتمع، وسوء الفهم الذي يعانيه، ولهذا بعد أن يرسم الصورة كلّها يقدم شكواه في شارِدِه الذي بقي على مرّ السنين:

وظلم ذوي القُرْبى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ من وقعِ الحسامِ المهنّدِ[2]

هذا النموذج الذي قدّمناه هو نتفٌ من سيرة، لكنه بالنظر إلى حياة طرفة القصيرة يصلح لأن يكون إطارًا عامًّا لها، لأنه من الشاعر نفسه أولا، ولأنه يناسب ما أثبتته الروايات التاريخية عن حياته ثانيا، وتكمن قيمة هذا النص في الآتي:

- فهو قد قدّم نموذجَ حياةٍ عاديّة لشاب عربي، وحاول أن يكون فيها مجرّدًا في وصفها، ولو أراد مؤرخٌ أن يكتب عن حياته لما استطاع أن يزيد شيئا ذا بال على الصور التي اقتبسها طرفة من حياته وقدّمها في قصيدته.

1- ديوانه:27

2-ديوانه :27

- وهو عندما قدم هذه الصور من حياته أشبعها برؤيته وتفسيره الخاص، واستعان بحتميّة الموت ليجعلها الذريعة للتمتع بهذه الحياة القصيرة (فدعْني أبادرُها بما ملكتْ يدي)، وهذا يعني أنّ لطرفة فلسفةَ الفنّان، وأنّ تفكيره يتسامى إلى أبعد من المعيشة العادية التي يفلح فيها كثيرٌ من الناس لكنهم يخفقون في تحقيق قيَمٍ عالية بسبب وقوعهم في أسر اللحظة الحالية، والنظرة القصيرة الرتيبة للحياة
- وأفلح طرفة في استخدام الأدوات النثرية في سرد السيرة:

- بدأ بالبطل ووصفه
- استخدم شخصيات لائمة ثانوية موازية
- استخدم الحوار للإقناع
- استخدم الفكر لتفسير بعض مواقف حياة البطل
- وظّف هذه الأحداث في الانتهاء منها إلى صياغة حِكَمٍ كُبرى، مثل: (وظلم ذوي القربي...) ، (لعمرُك إن الموت ما أخطأ الفتى...)، (أرى الموتَ يعتامُ الكرام...)

وبعد، فهل نُسمّي هذه النُتَفَ سيرة ذاتية؟ وهل يمكن أن تؤخذ دليلا على التزاوج بين النثر والشعر؟

لم يكن القصدُ من هذا الاستشهاد من شعر طرفة أن يكون شاهد السيرة الذاتية الشعرية، فهناك قصائد أطول وأوثق، لكن هذه اللمحات من معلقة طرفة تصلح لأن تكون جزءًا من الموضوع، لأنّها وإن كانت موجزة وأتت في إطار توظيف عام في معلّقة طرفة فهي – من وجهة نظري– أساسٌ لتوظيف السيرة الذاتية شعريا، وهي تختلف عن نموذج امرئ القيس في معلقته لأسباب كثيرة، أهمّها أن الشخصيات التي رواها طرفة من الواقع، بينما في معلقة امرئ القيس ذكر الرواة أن بعض أسماء المحبوبات قد تكون رمزية، ولهذا يتعدد اسم المحبوبة في المعلقة التي كُتِبَتْ بروح الخيال، ولم تكن الأحداث أو الشخصيات منقولة بشكل أمين من الواقع، بعكس ما عند طرفة.

ولأسباب فنيّة أخرى قد يطول شرحُها تتعلّق في المجمل بأسلوب كلِّ شاعر، وبطريقة أدائه الفني في قصيدته، وفي رسالته الشعرية التي ينوي تقديمها للمتلقّي في معلّقته.

هذه الصور تُقدَّم "لنشهد كيفية استيعاب القصيدة للتجارب الحياتية، وما عاشه الشاعر وعلق في ذاكرته وتشكّل في وعيه، وما أضاف خياله لتنبثق لدينا قصيدة سيرة ذاتية"[1]

أما في إطار القصيدة العربية الحديثة فالسيرة الذاتية الشعرية أصبحت مقصودةً لذاتها، وتكتب القصيدة لأجل بث السيرة، والحديث عن تفاصيلها، وقد تناولت دراسات كثيرة هذه السير الذاتية، وتحدثت عنها فنًّا وموضوعًا، لكنّ التأصيل لهذا الفنّ في الشعر القديم لم يكن ينال حظّه من الدراسة والبحث.

وبعد، فإننا نخلص في نهاية هذا البحث إلى أنّ السيرة الذاتية الشعرية طريقة شعرية خاصة تجمع بين أدوات السيرة وقدرات القصيد، وهي ليست فنًّا ممكِنا وحسب، بل هي أحيانًا تكون قيمة رئيسة في القصيدة، وتساعد الشاعر على أداء رسالته، وتقدم رؤيته التي تُلخِّص الحياة، أو تقدم فكرا عميقًا حولها، كما هو عند طرفة بن العبد.

وليس من الضرورة أن يتقيد الدارسُ للسيرة الذاتية الشعرية بكل ما تعارف عليه النقد الحديث من أدواتها في النثر، لأن للشعر خصوصيته التي إن لم يحافظ عليها انهار بناؤه وفقد أدبيّته الشعرية، ويمكن للناقد أن يقرأ النصوص التي تناسب الموضوع ويستخلص منها نموذجه الذي يقدمه للقراء عن السيرة الذاتية الشعرية،

1- من مقال في جريدة الاتحاد الإماراتية لعمر شبانة، بعنوان: السيرة الذاتية والتجربة الشعرية، بتاريخ 3-11-2011م ، رابط:
http://www.alittihad.ae/details.php?id=29205&y=2010&article=full

ونلحظ أنّ في الشعر القديم لمحات تصلح للقراءة النقدية المعمّقة، ولعل الدراسة القادمة للباحث –إن شاء الله– تكون عن قراءة نقدية للسيرة الذاتية في نموذج من الشعر القديم.

المراجع:

1– أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر 1992م.

2– الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه أ. سمير جابر، دار الكتب العلمية– بيروت، ط2، 1992م

3– البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ (ت 255 هـ)، ت: عبد السلام هارون، الناشر دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ)،

4– تحليل الخطاب الأدبي، إبراهيم صحراوي، دار الآفاق ، الجزائر، 1999م

5– الترجمة الذاتية، يحيى إبراهيم عبد الدائم، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1975م

6– ديوان طرفة بن العبد، شرحه مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3،2002م

7– ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للنشر، 1986م.

8– ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2013م

9– فن السيرة، د.إحسان عباس،دار الثقافة ، بيروت،1956م

10– قضايا معاصرة في الأدب والنقد،د.محمد غنيمي هلال، ص64، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة

مقالات:

[1]– السيرة الذاتية والتجربة الشعرية، عمر شبانة، مقال في جريدة الاتحاد الإماراتية بتاريخ 3–11–2011م،رابط:
http://www.alittihad.ae/details.php?id=29205&y=2010&article=full

2– فن السيرة الذاتية في الشعر العربي، د.عبد المجيد البغدادي، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، العدد 23، باكستان ، 2016م